

أسلوب الموصول لفظاً المفصول معنى في القرآن - ابن عطية نموذجاً -

Title in English; The 'Mawṣūl' Construction: Formally Linked but Semantically Disjoined in the Qur'an — A Case Study of Ibn 'Aṭṭīyya al-Andalusī."



محمد الجنيدي حقيقه^{1,2,3} أ.د. رضا دغبار²

¹جامعة الجزائر 1 كلية العلوم الإسلامية (الجزائر)

²مخبر مناهج البحث والتقويم في العلوم الإسلامية ومقاصدها ومسالك تقويمها (الجزائر)

³المؤلف المراسل: mohamed.haguiga@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2026/06/30

تاريخ القبول للنشر: 2026/06/27

تاريخ الاستلام: 2026/04/23



ملخص البحث:

يتناول هذا البحث أحد أنواع أسلوب الموصول لفظاً المفصول معنى، وهو نسبة القول إلى قائله؛ وهو نوع من أنواع علوم القرآن ذكره كل من السيوطي والزركشي، ولا يقتصر الموصول لفظاً المفصول معنى على نسبة القول إلى قائله فحسب؛ بل يشمل الاستئناف بالواو، والحذف، والاستثناء وغير ذلك؛ وهو نوع مفيد، يساعد على تحليل المعنى؛ كما أنه يساعد على حل مشكلاته؛ فمثلاً قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةً أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾ [النمل: 34] يتجاذبه أمران: هل قوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝٣٤﴾ [النمل: 34] تابع لسياقه فيكون من قول ملكة سبأ، أو هو استئناف من قول الله تعالى إقراراً لها؟ ولكل واحدٍ منهما معنى يتصل به.

وكان تفسير ابن عطية محل الدراسة؛ لأنه قد اهتم بعموم هذا النوع، ووجدت عنده معانٍ وتعليقات حسن الوقوف عندها، وليس هذا خاصاً بابن عطية فحسب؛ إذ توجد مادة علمية هائلة عند غيره: كالإمام الطبري، والقرطبي، ومن المعاصرين: الطاهر ابن عاشور؛ فكان من مقاصد هذا البحث تنبيه الباحثين عليها. وخلص البحث إلى أهمية هذا النوع للوصول إلى المعنى؛ لأنه مشترك بين: مبحث السياق، والوصل والفصل، وكذلك الوقف والابتداء، والمناسبات، والالتفات، وإبراز بعض قواعد التفسير؛ كما يعتبر هذا النوع أيضاً سبيلاً لتكثير المعاني مع قلة الألفاظ التي هي من أبرز خصائص أسلوب القرآن، وهي أحد وجوه الإعجاز.

الكلمات المفتاحية: الأسلوب، الموصول لفظاً، المفصول معنى، ابن عطية الأندلسي.

Abstract: This study examines a particular type of the stylistic phenomenon described as “connected in wording yet separate in meaning,” namely the attribution of speech to its speaker. This is one of the disciplines of Qur’anic studies mentioned by both al-Suyūṭī and al-Zarkashī. The phenomenon of what is “connected in wording yet separate in meaning” is not limited to attributing speech to its speaker; rather, it also includes resumption introduced by the particle *wāw*, ellipsis, exception, and other related devices. It is a useful category that helps in analyzing meaning and in resolving exegetical problems.

For example, the verse: *‘‘She said, ‘Indeed, kings, when they enter a town, ruin it and render the most honored of its people humbled; and thus do they do’’* [al-Naml 27:34] admits of two possible interpretations: Is the phrase *‘‘and thus do they do’’* a continuation of the same context, and hence still part of the speech of the Queen of Sheba? Or is it a fresh, independent clause from Allah, Most High, confirming her statement? Each of these two possibilities carries its own connected meaning.

The Qur’anic exegesis of Ibn ‘Aṭīyya was chosen as the main field of investigation because he paid particular attention to this phenomenon in its broad sense, and his work contains meanings and justifications that are worth close examination. This is not unique to Ibn ‘Aṭīyya, however; there is also a vast amount of relevant material in the works of others, such as Imām al-Ṭabarī, al-Qurṭubī, and, among contemporary scholars, al-Ṭāhir ibn ‘Āshūr. One of the aims of this study is therefore to draw researchers’ attention to these resources.

The study concludes that this phenomenon is of great importance for arriving at the intended meaning, since it intersects with several areas: contextual analysis, the study of connection and separation (waṣl and faṣl), pause and resumption (waqf and ibtidā’), rhetorical and thematic correlations (munāsabāt), *iltifāt* (grammatical and pronoun shifts), and the formulation of certain exegetical principles. This type of analysis is also a means of multiplying meanings despite the fewness of words—one of the most prominent characteristics of Qur’anic style and one of the aspects of its inimitability.

key words: style; connected in wording; separate in meaning; Ibn ‘Aṭīyya al-Andalusī.

مقدمة:

لا يزال القرآن الكريم منبعاً لا ينضب من لطائف المعاني، ودقائق الهدايات؛ لأنه كتابُ الدَّهر، والمعجزة الخالدة، فليس وراء تفسيره إلا الزَّمن.

ثم إنَّ "الموصول لفظاً المفصول معنى" من أنواع علوم القرآن التي لاتزال الحاجة ماسَّةً إلى تأصيله، والتَّأليف فيه إذ لا يزال -في الواقع- بكَراً يحتاج إلى جمع مفرداته، واستقراء تفاريعه، للخروج بمعالم واضحة، وقواعد عامَّة؛ تضبط هذا النَّوع المهمَّ من تفسير أي القرآن.

وتكمن أهميَّة هذا النوع من علوم القرآن: أنَّه ميدانٌ فسيحٌ تظهر فيه ملكات العلماء في التَّرجيح والتَّحليل والاستخراج في ضوء قواعد هي: من عُيون مباحث التَّفسير واللغة: كالسِّياق، وعَوْد الضَّمير، والاستئناف والحذف، والوقف والابتداء، وكلُّها مباحث لها علاقة متينة ومباشرة بالمعنى.

وكان ابنُ عطية أحدَ أفراد العلماء الذين منحهم الله فهماً في كتابه، وموهبةً في استخراج المعاني، وتقعيد القواعد، وقد تعرَّض لهذا النوع في تفسيره؛ فجاء هذا المقال للكشف عن شيءٍ من جوانبه.

.ومن المهمَّ جدّاً: التَّنبيه على أنَّ الكتابة في هذا النوع من علوم القرآن لاتزال قليلةً وشحيحة؛ إذ لا توجد فيما أعلم دراسةً شاملةً فيه؛ وقد كان أوَّل من أَلَف فيه -في حدود ما اطَّلعتُ عليه- الباحثة: خلود شاكِر فِهيد العبدلي في بحثها الموسوم بـ: (الموصول لفظاً المفصول معنى في القرآن الكريم من أوَّل سورة يسين إلى آخر القرآن الكريم)، أطروحة تقدمت بها الباحثة للحصول على درجة الماجستير، نوقشت بقسم الدراسات بجامعة أم القرى، وقد أفادت الباحثة أنها لم تقف على كتابٍ أُفرد في هذا الموضوع بالبحث لا قديماً ولا حديثاً، كما أخبرت أنَّها راسلت الجامعات، والكليات، والمراكز العلمية المختصة ليتبيَّن أنَّ هذا الموضوع لم تسبق دراسته؛ فوافق هذا ما تقرَّر عندي سابقاً¹؛ غير أنَّ من الملاحظ أنَّ الباحثة اقتصرت على ربع يسين، وحاولت التَّأصيل لهذا النوع؛ حيثُ فتحت الباب، وبذلت جهداً في ذلك؛ لكن والحقُّ يقال: إنَّ هذا النوع لا يزال بحاجة لضبط، واستقراء أكثر.

الإشكالية:

بناءً على ما سبق ذكره؛ يبقى الموصول لفظاً المفصول معنى بحاجة إلى إيضاحٍ وعليه فنطرح الإشكال الآتي:

-ما تعريف الموصول لفظاً المفصول معنى في القرآن الكريم؟

.وماهي القواعد التي يمكن استثمارها لتجلية المعنى في "نسبة القول إلى قائله" من جهة؟ أو التَّرجيح بين الأقوال في هذا النوع من جهة ثانية؟

.هل وظَّف ابنُ عطية في كتابه "المحرَّر الوجيز" هذه القواعد في هذا النَّوع من علوم القرآن؟

¹. وذلك أثناء القيام بدراسة أطروحتي: «أثر الدلالة النحوية في التفسير. ابن عطية نموذجاً». فقد كان. رحمه الله. كثيراً ما يشير إلى هذا؛ فلفت انتباهي، ثم لم أجد من بحثه. في حدود علمي،. حتى وقفت على رسالة الباحثة، فكان هذا المقال والحمد لله.

ـ منهج البحث:

أتبعت في هذه المقالة منهجاً تحليلياً وصفيّاً؛ حيث اخترت بعض النماذج، وقمت بتحليلها وإرجاعها لبعض ضوابط وقواعد علم التفسير وكان القصد منه: الوقوف على جوانب ونماذج من أسلوب الموصول لفظاً المفصول معنى؛ كما يهدف هذا المقال إلى لفت نظر الباحثين للكتابة في هذا النوع، وتأصيله ووضع معالمه.

ـ خطة البحث:

كانت خطة البحث مقسّمة إلى: مقدمة

1. ترجمة موجزة لابن عطية . رحمه الله .

2. تحديد مفهوم الموصول لفظاً المفصول معنى لغةً واصطلاحاً.

3. ذكر نماذج عامّة للموصول لفظاً المفصول معنى.

4. ذكر أمثلة لنسبة القول إلى القائل . وهو مقصود المقال . وعدد الأمثلة ستّة.

5. خاتمة حوت أهم النتائج.

المبحث الأول: ويشمل القسم النظري

ويحتوي هذا المبحث على تعريفات؛ منها: تعريف موجز بابن عطية، وتعريف بمفردات هذا البحث مع ذكر نماذج توضيحية لفروعه وتقاسيمه،

المطلب الأول: وفيه تعريف بمفردات عنوان البحث.

يشمل هذا المطلب تعريفاً موجزاً بالإمام ابن عطية مع تعريفات توضح معنى البحث، ومقصود الباحث من بحثه.

الفرع الأول: تعريف موجز بابن عطية

هو المفسر الكبير، أبو محمد عبد الحق بن "أبي بكر بن غالب بن عبد الرحمان بن غالب بن عبد الرؤوف بن تمام، بن عبد الله، بن تمام، بن عطية، بن خالد، بن عطية المحاربي الداخل، وعطية هذا: هو الداخل إلى الأندلس وقت الفتح" (عطية)

وُلد ابن عطية سنة "ثمانين وأربعمئة"، ونشأ في بيت علم، وكان من الأذكياء؛ فبوأه هذا مكانة سامية في العلم، وأهله ليكون قاضياً بالأندلس.

وكان من أبرز شيوخه: والده الحافظ المجود أبوبكر بن غالب بن عبد الرحمان، إذ يعتبر أستاذه الأول لتلقيه المعارف.

مؤلفاته: من المشهور الرّاجح أنّ لابن عطية مؤلّفين ممّا وصلنا:

أ. (فهرس ابن عطية): حقّقه أبو الأجفان، وطبعته دار الغرب الإسلامي، بيروت.

ب. (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز): وهو أشهر كتبه، وبه عُرف والظاهر أنّ مؤلّفه لم يسمّه وإنّما جاءت التسمية من غير ابن عطية وهذا هو الأقرب لأمر أهمها:

.لم ينصّ هو على التسمية، ولم ترد تسمية الكتاب في كتب من ترجم له، وإنّما وردت "الوجيز في التفسير" وهي التسمية الأقدم في كتب التراجم كـ "الإحاطة في أخبار غرناطة" (الخطيب، 1424 هـ، 412/3) ولهذا:

. غير مدفوع. في صناعة التحقيق. أن يؤخذ عنوان الكتاب من مقدّمة مؤلّفه، وهذا موجود في عناوين الكتب المحقّقة، ولعلّه أخذ من قول ابن عطية في مقدّمة كتابه: "وقصدت أن يكون جامعاً وجيزاً محرّراً" (عطية،

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 37/1)

.توفي ابن عطية. رحمه الله. في ليلة الخامس عشر من رمضان سنة 541هـ، وقيل: 542هـ ودفن بلورقة.

الفرع الثاني: تحديد مفاهيم البحث، وتعريف بمفرداته:

أولاً: التعريف اللغوي لمفردات الموصول لفظاً والمفصول معنى.

أ. الموصول: اسم مفعول من الفعل وصل؛ يقال: وصل الشيء بالشيء يصله، والوصل خلاف الفصل (منظور، 1414 هـ، 726/11)، وتدور معانيه في كتب اللغة على: الضم، والجمع (منظور، 1414 هـ، 726/11).

ب. لفظاً: "اللام، والفاء، والطاء، كلمة صحيحة تدلّ على طرح الشيء، وغالب ذلك أن يكون بالفهم، تقول: لفظ بالكلام يلفظ لفظاً" (فارس، 2011 م، ص 905).

ج. المفصول: اسم مفعول من الفعل فصل، وأصله يدلُّ على تمييز الشئ من الشئ، وإبانته عنه (فارس، 2011 م، ص 847).

د. معنى: مصدر من الفعل عني، وهو مشتق من "عنت الأرض بالنبات"؛ يعني أظهرته، أو ظهر فيها النبات وعنى بالقول كذا؛ يعني: أراد وقصد (الزبيدي، 1964 م، 5/535).

ويجدر التنبيه أن الزركشي. رحمه الله. أطلق على هذا النوع اسم "المدرج" قياساً له على المدرج في الحديث كما سيأتي كلامه.

. المدرج: درج الشئ يدرجه درجاً طوى، وأدخله كدرج تدريجاً، وأدرج، والرُّباعي أفصح

والإدراج: لف الشئ، ويُقال لما طوئته: أدرجته (الزبيدي، 1964 م، 39/122)

ثانياً: الموصول لفظاً المفصول معنى، اصطلاحاً:

اكتفى الزركشي، والسيوطي. رحمهما الله. بذكر الأمثلة عن الموصول لفظاً والمفصول معنى فحسب ولم يتعرض لتعريفه، وكان هذا تعريفاً بالمثال "والتعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحد المطابق" (ابن تيمية، ص 15).

.وقد عرّفته الدكتورة خلود العبدلي بقولها: "مجيء الآية أو الآيات في السورة الواحدة على نظم واحد في اللفظ، يوهم اتصال المعنى" (العبدلي، ص 24-28).

وقد علّلت كلمة "يوهم" في التعريف بقولها:

"الإيهام هنا أعم من الإشكال؛ لأنّ اتصال اللفظ يوهم دائماً اتصال المعنى، سواء أكان في اتصال اللفظ إشكالاً في فهم المعنى، أم لم يكن، وهذا القيد: هو لبيان أنّ مدار البحث في هذا الموضوع هو رفع توهم اتصال المعنى في الآية، أو الآيات المتصلة لفظاً؛ إذ المراد فصله" (العبدلي، ص 33).

ويعتقد الباحث أنّ هذه الكلمة في تعريف الدكتورة خلود "يوهم" فيها نظر؛ إذ ليس كل موصول في اللفظ مفصول في المعنى؛ يكون. في الواقع. مشكلاً.

وعليه: فلو كانت العبارة هكذا: "ظاهره اتصال المعنى" لكانت. ربّما أشمل. لجميع أفرادها، والله أعلم.

وقد عرّف الزركشي هذا النوع؛ بعدما سمّاه "المدرج" حيث قال: "وهذا النوع سمّيته بهذه التسمية بنظير المدرج في الحديث، وحقيقته في أسلوب القرآن الكريم: أن تجيء الكلمة إلى جنب أخرى كأنّها معها، وهي في الحقيقة غير متعلّقة بها" (الزركشي، 412/3).

وأما "نسبة القول إلى قائله": فيدخل ضمن الموصول لفظاً المفصول معنى إذ هو أحد أفرادها؛ ودخوله في هذا النوع إمّا أن يكون من باب: الالتفات، أو من باب الاستئناف والعطف.

المطلب الثاني: نماذج توضيحية عامة لتقاسيم الموصول لفظاً المفصول معنى

وقد جاء هذا المطلب مبيناً نماذج عامة للموصول لفظاً المفصول معنى: فمنها ما هو متفق على دخوله في الموصول لفظاً المفصول معنى، ومنها ما هو مختلف في دخوله في هذا النوع؛ كما اشتمل هذا المطلب على بيان أسلوب ابن عطية في كلامه على هذا النوع

الفرع الأول: أمثلة عامة للموصول لفظاً المفصول معنى.

أ. مثال لما هو متفق على أنه من الموصول لفظاً المفصول معنى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ أَلَسْمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: 65]

قال ابن عطية . رحمه الله . "وكسر إن في الابتداء ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 211/5) هذا كمثل قوله . تعالى . ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [يس: 76]، فمن المحال أن تكون الآيتان متصلتين؛ إذ لا يمكن أن يكون قول الكفار: إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، كما لا يمكن . أيضاً . أن يكون من قولهم: إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وما يعلنون؛ فهذا محال والله أعلم.

ب. مثال لما وقع فيه إشكال، واختلفت الأنظار دخوله في: الموصول لفظاً المفصول معنى:

مثاله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ ١٨٩ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 189-190].

ووجه الإشكال في هذه الآية من جهة قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: 190]

فإن قلنا إنها موصولة بما قبلها؛ يترتب عليه: نسبة الشرك لني . وهو أبونا آدم . وهذا محال لأن الأنبياء معصومون من الشرك قبل بعثتهم وبعدها؛ فانقسم الناس إلى فريقين:

الفريق الأول: قالوا إن هذه الآية من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى، وعلى هذا فيكون معنى قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كلاماً منفصلاً ليس من الأول، ويراد به: مشركوا العرب؛ وإن خبر آدم وحواء تم في قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا﴾ [الأعراف: 190]. (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 469/4).

. وأما الفريق الثاني فقد قالوا: إن الكلام متصل؛ وأجابوا على نسبة الشرك لآدم: بأنه شرك في التسمية وليس شركاً في العبادة؛ لأنهما سمياه: (عبد الحارث)، وبعضهم قال: هو شرك في الطاعة وليس شرك العبادة؛ حيث أطاعوه في تسمية الولد (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 469/4) وينظر: (الطبري، 2001 م، 148/9).

وفي الآية كلام وتفصيل طويل؛ لكن حسبنا أن نذكره هنا . كمثال للموصول لفظاً المفصول معنى؛ الذي وقع فيه إشكال، والله أعلم.

الفرع الثاني: أسلوب ابن عطية في عرض بعض أنواع الموصول لفظاً المفصول معنى، وهو (نسبة القول إلى قائله) دون ترجيح أو تعليل.

وقد تنوعت عبارات ابن عطية في ذكر هذا النوع وإليك بعض النماذج:

1. حكاية أقوال دون ترجيح ولا تعليل؛ كمثّل قوله تعالى ﴿قَالُوا يُؤَيِّلُنَا مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ۖ هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52]

يقول ابن عطية. رحمه الله. "فقال ابن زيد: هي من قول الكفرة أي لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا قالوا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ وقالت فرقة: ذلك من قول الله تعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراء: هو من قول الملائكة، وقال قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفرة على جهة التقريع" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 210/8).

2 ذكر الخلاف دون ترجيح مع ذكر الإجماع في ما يقابل الآية المذكورة:

﴿وَقَالُوا يُؤَيِّلُنَا هَذَا يَوْمَ الدِّينِ ۚ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [الصافات: 20-21] وروى أبو حاتم الوقف هاهنا وجعل قوله هذا يَوْمُ الدِّينِ من قول الله تعالى لهم أو الملائكة، ورأى غيره أن قوله تعالى: هذا يَوْمُ الدِّينِ هو من قول الكفرة الذين قالوا يا وَيْلُنَا، والدِّينِ الجزاء والمقارضة كما يقولون كما تدين تدان، وأجمعوا أن قوله هذا يَوْمُ الْفَصْلِ إلى آخر الآية ليس من قول الكفرة وإنما المعنى يقال لهم" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 240/8).

3. ذكر الخلاف وحكايته دون نسبة القول إلى قائله، كمثّل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغُضِّهِمْ إِلَىٰ بَعْضِ قَالُوا أَنُحَدِّثُوكُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ ۚ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76] فنجد ابن عطية يذكر أقوالاً مجردة دون نسبتها قال. رحمه الله. "وقوله تعالى ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 76] قيل: هو من قول الأخبار للأتباع، وقيل: هو خطاب من الله للمؤمنين، أي أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 461/1).

4. نسبة القول بصيغة الاحتمال دون حكاية قول، كمثّل قوله تعالى

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيصَ آمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: 44] يقول ابن عطية ﴿وَقِيلَ بُعْدًا﴾ يحتمل أن يكون من قول الله تعالى عطفًا على ﴿وَقِيلَ﴾ الأول، ويحتمل أن يكون من قول نوح والمؤمنين، والأول أظهر وأبلغ" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 317/5).

والملاحظ أن ابن عطية رجّح في هذا المثال، وهذا بخلاف المثال الآتي فقد ذكر احتمالين دون ترجيح.

5. المثال الذي فيه ذكر القولين احتمالاً دون ترجيح: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72] يقول ابن عطية: "وقوله. تعالى ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول عيسى -عليه السلام- لبني إسرائيل، ويحتمل أن يكون إخباراً مستأنفاً لمحمد صلى الله عليه وسلم" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 206/3).

فهذه بعض النماذج لأسلوب ابن عطية في استعمال هذا النوع؛ وحرى بالبيان: أن مواطن الموصول لفظاً المفصول معنى بعمومه -بإحصاء تقريبي- أكثر من 150 موطن على الأقل.

المبحث الثاني: وهو الجانب التطبيقي لأحد أفراد الموصول لفظاً المفصول معنى؛

وهو: نسبة القول لقائله

ويتناول هذا المبحث أمثلة تطبيقية من خلال تفسير ابن عطية في الآيات التي وقع فيها خلاف باعتبار نسبة القول إلى قائله؛ الذي يندرج هذا النوع تحت مبحث الموصول لفظاً المفصول معنى، وقد وقع ترتيب هذه الأمثلة ضمن إرجاعها إلى بعض قواعد أصول التفسير زيادة في التوضيح، وإثراء للمعاني، وبياناً لمنزغ الخلاف وسبب الترجيح فيه.

المطلب الأول: ما يندرج تحت قواعد تفسيرية لغوية

وقد تضمّن هذا المطلب أربعة أمثلة من هذا المبحث تبرز قيمة هذا النوع من الموصول لفظاً المفصول معنى وأثر القواعد اللغوية التفسيرية عليه
الفرع الأول: وقد تضمّن مثالين:

المثال الأول: ويندرج تحت قاعدة: "توحيد مرجع الضمائر، وعدم تشتيها" في الموصول لفظاً المفصول معنى.

﴿قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رُودْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اأَلَّنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ ٥١ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 51-52]

فقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: 52] حكى فيها ابن عطية قولين:

القول الأول: أنّ هذه المقالة من يوسف (ينظر: (الطبري، 2001 م، 207/13-211) وهذا القول قال: ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والحسن وقتادة، والسدي) وقد وجّها ابن عطية وفق ما يلي:
ليعلم العزيز سيدي أنّي لم أخنه في أهله وهو غائب، وليعلم. أيضاً. أن الله لا يهدي كيد الخائنين.
ثم حكى عن أصحاب هذا القول متعلّق هذه الجملة، فقالت طائفة:

أ. هذه المقالة متّصلة بقوله للرّسول: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50]

فيكون المعنى هكذا:

فلما جاءه الرّسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النّسوة التي قطعن أيديهنّ إنّ ربّي بكيدهنّ عليمٌ ذلك ليعلم أنّي لم أخنه بالغيب، وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين (ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 482/5-483)؛ فتكون الآية عندهم: فيها تقديم وتأخير وبناء على هذا: فالإشارة بـ "ذلك" يعني بقاءه في السّجن والتماسه البراءة؛ وهذا ليعلم سيدي أنّي لم أخنه بالغيب.

ب. وقالت طائفة: متعلق الجملة حينما قالت امرأة العزيز ﴿أَلَّنْ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ﴾ فإشارة ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ إلى إقرارها وصنيع الله فيه.

وقد ضعّف هذا القول ابن عطية بقرينة أنّه يقتضي حضوره مع النّسوة عند الملك وهذا يدفعه قوله: ﴿وَقَالَ أَمَلِكُ أَتَتُونِي بِهِ﴾ [يوسف: 54] (ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 483/5) وقد أخذ قوله هذا أبو حيان، وحكى عبارته.

القول الثاني: يرى أصحابه أنَّ امرأة العزيز هي من قالت هذا، وكلامها متَّصل؛ فيكون التَّقدير: توبتي وإقرارتي ليعلم أيُّ لم أخنه بالغيب وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين (ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 483/5)، واختار هذا القول ابن كثير، والسمين الحلبي، وابن عاشور.

وظاهر كلام ابن عطية: أنه يميل للقول الثاني، ويمكن أن نلاحظ على القول الأوَّل ملاحظات:

.أنَّه يلزم منه أن يكون فيه تقديم وتأخير؛ لأنَّ قوله ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: 50] يأتي بعدها ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّ لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ مقدَّمة على الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ؟﴾ [يوسف: 54] ووجه هذا أن تكون الآية هكذا: (قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ذلك ليعلم أيُّ لم أخنه بالغيب وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين وقال الملك انتوني به) وهذا - كما هو ملاحظ - إخلال بالترتيب، والقاعدة: إذا دار الأمر بين الترتيب والتَّقديم كانت الأولوية للترتيب على التقديم لأنَّه أصل والتقديم فرع (الحربي، 2008 م، 71/2-100).

.وكذلك على الأوَّل يكون قول يوسف: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: 52] مقدَّر بقوله: ليعلم. أي: العزيز. أيُّ لم أخنه بالغيب؛ والقاعدة تقول: إذا دار الأمر بين التَّقدير وعدمه رجعنا للأصل وهو عدمه. (الحربي، 2008 م، 71/2-100).

وإذا أردنا أن نعرف سياق مرجع الضمائر: نجد أنَّ تمام الكلام يؤيد أن تكون المقالة لامرأة العزيز؛ لأنَّ الضمائر كلُّها على نسقٍ واحد جاءت دالَّةً على يوسف. عليه السَّلام. بداية من قول النسوة: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: 51] مع قول امرأة العزيز بعده: ﴿أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: 51] فهذه خمسة ضمائر: بين بارز، ومستتر في الآيات، ثمَّ نجد أنَّه قد اتَّصل بها قوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّ لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ [يوسف: 52] فيكون هذا الضمير في ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَيُّ لَمْ أَخُنْهُ﴾ [يوسف: 52] هو المذكور أولاً بعينه؛ تماشياً مع قاعدة: توحيد مرجع الضمائر في السياق الواحد أولى من تفريقها، وقد استعملها ابن عطية في تفسيره في موطن آخر، وعبر عنها في معرض تضعيف بعض الأقوال بقوله: (وهذا غير قوي؛ لأنَّه يفرق الضمائر ويشتت المعنى) (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 506/8)،

ويؤيد هذا أنَّ ما بعده من قوله: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: 53]

تكون مبنيةً على هذه المسألة؛ فإن كان من امرأة العزيز فهو واضح؛ وإن كانت من يوسف فقد جاءت تفسيرات كثيرة في حق نبي الله يوسف، تخالف قاعدة التفسير الكبيرة: عصمة الأنبياء (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م) (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 483/4).

فنلاحظ أن قاعدة توحيد مرجع الضمائر كانت أحد المرجَّحات المعتبرة التي جعلتنا نختار القول الثاني وهو نسبة القول لامرأة العزيز والله أعلم، وممن ذهب إلى هذا القول: شيخ الإسلام ابن تيمية، وأبو حيان، ومن المعاصرين: الإمام الطَّاهر بن عاشور. انظر: (الحربي، 2008 م، 241/2)

المثال الثاني: نسبة القول إلى قائله في ضوء أسلوب الغيبة والخطاب.

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غْفِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]

وجملة المعنى في هذه الآية ومحل الشاهد هو قوله: ﴿وَأَشْهَدَهُمْ﴾ حكى ابن عطية فيها قولين:

الأول: أن تكون موصولة من قول بعض النسم لبعض؛ أي: شهدنا عليكم لئلا تقولوا يوم القيامة غفلنا عن معرفة الله والإيمان به فتكون مقالة من هؤلاء لهؤلاء.

الثاني: أن تكون من قول الملائكة والمعنى: قال الله وملائكته شهدنا وتكون هذه من الموصول لفظاً المفصول معنى. (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 5/225).

وبناء على هذا: فلا يحسن الوقف على قوله ﴿بَلَى﴾ إذا اعتبرنا الآية موصولة من قول بني آدم لبعضهم؛ وإذا جعلنا الآية موصولة لفظاً مفصولة معنى من قول الملائكة؛ فيحسن الوقوف على قوله: ﴿بَلَى﴾ ورجح الطبري أن تكون الآية من قول بني آدم باعتبار السياق وقرينة ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأعراف: 172] (الطبري، 2001 م، 10/564).

غير أن ابن عطية جعل القراءتين الواردتين في الآية تفسران بحسب المعنيين إذ قرأ السبعة: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ على مخاطبة حاضرين بينما قرأ أبو عمرو البصري وحده: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ على الحكاية عن الغائبين. ينظر: (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 4/125).

ولهذا جعل ابن عطية القراءتين تفسران بحسب المعنيين المذكورين، ومعناه:

- القراءة السبعية تؤيد أن: القول من الملائكة؛ فتكون الآية من الموصول لفظاً المفصول معنى.

- وقراءة أبي عمرو تؤيد: أن يكون القول متصلاً ببني آدم يشهد بعضهم على بعض.

فالقراءتان جعلتا القولين متكافئين كما ذكره ابن عطية

الفرع الثاني: ويتضمن مثالين لدلالة السياق على تقدير المحذوف، والاستئناف بواو العطف دلالة السياق على تقدير المحذوف.

المثال الأول: دلالة السياق على تقدير المحذوف.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحَرُ هَذَا وَلَا يُفْلَحُ السَّحَرُونَ﴾ [يونس: 77]

اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿أَسِحَرُ هَذَا﴾ هل هذا الاستفهام من قوم فرعون، أو من قول موسى؟ قولان حكاهما ابن عطية.

فعلى القول الأول: تكون جملة ﴿أَتَقُولُونَ﴾ عاملة في ﴿أَسِحَرُ هَذَا﴾ متصلة بها من قول قوم فرعون؛ حكاية من موسى. عليه السلام. لقولهم.

وقد ورد إشكال على الجملة. من حيث دخول الاستفهام عليه حيث دلت الآية في -ما سبق- أنهم قد جزموا بلا شك أنه (سحر مبين)، وقد نقل ابن عطية جوابين عن هذا:

أ. الجواب الأول: قالها منهم كلٌ مستفهم جاهل بالأمر فهو يسأل عنه، لكن رَدَّ هذا الوجه وضعفه بقوله: "هذا التأويل يضعفه ما ذكره الله قبلُ عنهم من أنَّهم صَمَّمُوا على أنه سحر بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: 76] (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 221/5).

ب. الجواب الثاني: أنَّهم أدخلوا الاستفهام على معنى التعظيم للسحر الذي رأوه بزعمهم كما تقول لفرس تراه يجيد الجري: أفرس هذا؟ على معنى التعجب منه والاستغراب وأنت قد علمت أنه فرس (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 222/5)، وقد حكاه ابن الجوزي عن الفراء، والأنباري؛ انظر: (الجوزي، 1422 هـ، 342/2).

وبناءً على هذا القول: فإنَّ الكلام يكون موصولاً بين العامل ومعموله؛ خارجاً عن أسلوب الموصول لفظاً المفصول معنى.

القول الثاني: أنَّ هذا من قول موسى . على سبيل الاستئناف . وعليه: فيكون معمول القول محذوفاً مقدراً دلَّ عليه السياق بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [يونس: 76] ولهذا قال ابنُ عطية في تقديره: "أقولون للحقِّ لما جاءكم سحرٌ؟ ثم ابتداءً بوقفهم بقوله: ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ [يونس: 77] (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 222/5) والاستفهام من موسى على سبيل التوبيخ والإنكار كما قرَّره ابنُ عطية، وقد قال السمين الحلبي: "وهو مدلول عليه فيما تقدَّم ذكره، وهو: "إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ" ومعمول القول يحذف للدلالة عليه كثيراً" انظر: (الحلبي، 246/6).

ثمَّ إنَّه عند تأمل الآية نجد أنَّ القول بالاستئناف، وتقدير المحذوف أقرب للصواب بدلالة السياق عليه، وذلك حينما قطعوا المسألة بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

ولهذا قال البيضاوي مؤكداً ما سبق: "حُذِفَ المحكي المقول لدلالة ما قبله عليه، ولا يجوز أن يكون ﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ لأنَّهم بتوا القول؛ بل هو استئناف بإنكار ما قالوه إلا أن يكون الاستفهام فيه للتقرير والمحكي مفهوم قولهم" (البيضاوي، 1418 هـ، 120/3).

فبدلالة السياق على المحذوف المعلوم في الجملة تبين أن الآية استئناف بالاستفهام التوبيخي من موسى لقومه، وأنَّ هذه الآية داخلَةٌ في المفصول لفظاً المفصول معنى -والله أعلم-.

المثال الثاني: ويتضمَّن الاستئناف بالواو.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ [القمر: 9]

وجملة المعنى قوله تعالى: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ هل هي معطوفة على قوله: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ فتكون حكاية عن قوم نوح أنَّهم كذبوه، وقالوا مجنون واستطير جنوناً، أم هي: استئناف من قول الله تعالى. فتكون من قبيل: الموصول لفظاً المفصول معنى؟ حكى القولين ابن عطية:

.القول الأول: قول أكثر المفسرين أنَّ قوله: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ هو "إخبار من الله أنهم زجروا نوحاً. عليه السَّلام. بالسبِّ والتخويف قاله ابن زيد وقرأ ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْحُكْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: 116] وعلى هذا القول تكون جملة ﴿وَازْدُجِرَ﴾ استئنافاً بالواو الموهوم للعطف؛ جاء من قول الله فتصير من قبيل الموصول لفظاً المفصول معنى.

القول الثاني: ذهب أصحابه إلى أن قوله ﴿وَأَزْدُجِرَ﴾ ليست من كلام الله وإنما من كلام قوم نوح: "كأنهم قالوا مجنون وازدجر، والمعنى: استطير جنونا واستعر جنونا" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 288/9).

يعتقد الباحث أن القول الأول أقرب إلى الصواب بدلالة السياق عليه؛ لأن سياق الآية كما قال ابن عطية: "سوق هذه القصة (قصة نوح) وعيد لقريش وضرب مثل لهم" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 288/9) فناسب أن تكون ﴿وَأَزْدُجِرَ﴾ من قول الله تسلياً لنبیه . صلى الله عليه وسلم ، ووعيدا لقريش، وناسب -أيضا- أن يكون الاستئناف مناسبا لما بعده من الآية؛ وقد نبّه الرازي إلى تناسب هذا الاستئناف بالواو في الترتيب؛ فقال: "ويترتب عليه قوله تعالى ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرَ﴾ [القمر: 10] ترتيباً في غاية الحسن؛ لأنهم لما زجروه وانزجر هو عن دعائهم دعا ربّه أَنِّي مَغْلُوبٌ" (الرازي، 1420 هـ، 94/29) ومع اعتقادنا أن القول الأول هو الأصوب إلا أن الاستئناف بالواو قد يوهم عطف ﴿وَأَزْدُجِرَ﴾ على ﴿فَكَذَّبُوا عَبَدَنَا﴾ [القمر: 9]

مما يجعلنا نتحفظ من قول ابن عطية على من ذهب إلى العطف بأنه: "قول فيه تعسف وتحكم" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 282/9).
المطلب الثاني: وقد تضمن قواعد تفسيرية عامة.

وقد تطرق البحث في هذا المطلب إلى قاعدتين ترجع إحدهما إلى القراءات القرآنية، والأخرى إلى قرينة خارجية وهي الحديث النبوي.

الفرع الأول: تأثير اختلاف القراءات القرآنية في توجيه الموصول لفظاً المفصول معنى .

مثاله: قوله تعالى: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: 25]

حكى ابن عطية عن بعض المفسرين² ظاهر الآية: أن هذا من قول الهدهد موصولاً بما قبله، غير أنه ثبت أن يكون هذا من قول الله تعالى . اعترضاً بين الكلامين قال: "وهو الثابت مع التأمل" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 421/7).

وقد ناقش ابن عطية هذين القولين باعتبار عدّة نجمليها في ما يلي ثمّ نصّلها:

أ. ناقش من جعل المقالة للهدهد بقوله: "ويُعترض بأنّه غير مخاطب فكيف يتكلّم في معنى شرع

ب. القراءة في قوله ﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ بالتشديد من عدمه وأثرها في القولين.

ج. القراءة بياء الغائب من قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أو هي بياء الخطاب: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

² نسبه ابن عطية لابن زيد، وابن اسحاق، ويشبه أن يكون قول أكثر المفسرين، والله أعلم.

ويمكن مناقشة أثرها في القولين بما يلي:

أ. أما كون الهدد غير مخاطب فكيف يتكلم بشرع؟!،

وجوابه: أن سياق الآية يمكن أن يدفعه، ويتأمل ما قبلها نجد أن الهدد تكلم. أيضاً. بما فيه تكليف، فقد قال ﴿وَجَدْتُمَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: 24] هي من قول الهدد بلا خلاف.

وينظم إلى هذا: أن نبي الله سليمان. عليه السلام. توعده بالعذاب الشديد لمخالفته، وكان رسولاً للمشركين؛ فكل هذا لا يستبعد معه أن "الله تعالى خصه من المعرفة بتوحيده ووجوب السجود له، وإنكار سجودهم للشمس، وإضافته للشيطان، وتزيينه لهم، ما خص به غيره من الطيور وسائر الحيوان، من المعارف اللطيفة التي لا تكاد العقول الراجحة تهتدي لها" كما قاله القرطبي. رحمه الله. (القرطبي، 1964 م، 13/188).

يؤكد: أن الكون كله شاهد على تسبيح الله وتزيينه؛ فما من شيء إلا ويسبح بحمده؛ كما قال تعالى. ﴿وَإِنْ مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44] والتسبيح هو التزييه وهو شامل لجميع المخلوقات، ماعدا بعض مشركي الإنس والجن -والله أعلم-.

ب. هناك أثر على المعنى باختلاف القراءة في قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ كما بينه ابن عطية؛ حيث نسب قراءة التشديد للجهمور؛ ويبن أن قراءة التشديد تعطي أن الكلام للهدد، وقراءة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما قرئ، قراءة التشديد في "ألا يسجدوا" لنافع، وابن كثير، وأبي عمرو، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأما قراءة التخفيف: للكسائي وأبي جعفر، ورويس؛ غير أن الكسائي عنده الوقف على الياء مع التخفيف: "ألا يا سجدوا" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 7/421)، وينظر: (الداني، 2008 م، ص 395)

وتحليل هذا: أن قوله ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ في موضع نصبٍ وذكر لها ابن عطية ثلاثة أوجه من الإعراب:

أ- في موضع نصبٍ على البدل من "أعمالهم"؛ فيكون المعنى: "وزين لهم الشيطان أعمالهم ألا يسجدوا لله".

ب- أنها في موضع خفض على البدل من "السبيل"؛ فيكون المعنى: "فصدّهم عن السبيل ألا يسجدوا لله".

ج- أو يكون الكلام بتقدير: "لئلا يسجدوا" واللام داخله على مفعول له، وعليه فإما أن تكون متعلّقة

بـ "زين" وإما بـ "فصدّهم"؛ فيكون المعنى: فصدّهم لئلا يسجدوا. (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 7/421)

حكى هذه الأوجه ابن عطية وهناك وجه رابع ذكره القرطبي وهو:

"ألا يسجدوا" متعلقة بـ "لعلهم يهتدون"؛ فتكون متصلة في المعنى. (القرطبي، 1964 م، 13/189)

وبناء على هذا: ففي قراءة التشديد يكون الكلام موصولاً بما قبله؛ متضمناً في ثناياه: عيهم وذمهم للسجود لغير الله دون أمرهم به؛ بخلاف قراءة التخفيف فهي استئنافٌ وتحضيضٌ يتضمّن الأمر بالسجود ابتداءً، وخاصة قراءة الكسائي بالتخفيف والوقف على "يا" للبداء، في قوله: "ألا يا سجدوا"؛ فإن كان هذا النداء من كلام الهدد: يكون التقدير: "ألا يا قوم، أو يا عقلاء".

ذكر هذين التقديرين ابن عطية ولعل الثاني أنسب في المعنى والله أعلم.

ج. وأما قوله: "ويعلم ما يخفون وما يعلنون" فمرتبط أيضاً بما قبلها، ولها تأثير في المعنى؛ إذ فيها قراءتان

نسب ابن عطية القراءة فيها بياء الغائب للجمهور، وقال: "وهذه القراءة تعطي أنَّ الآية من كلام الهدد (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 471/7) ووردت فيها قراءة أخرى "تخفون وما تعلنون" بقاء المخاطبة، "وهذه القراءة تعطي أنَّ الآية من خطاب الله - عز وجل - لأمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ينظر: (الداني، 2008 م، ص 396)

ومما سبق نلاحظ أنَّ ابن عطية في بداية كلامه رجَّح أنها مدرجة من مقال الله . عزَّ وجل . باعتبار: أنَّ الهدد غير مخاطب فكيف يتكلَّم في معنى شرع؟!

ثمَّ أقرَّ ضمناً توجيه القراءتين في الآيتين بما يجعل القولين متكافئين بقرينة وجود قراءتين متنوعتين، وهذا أفضل من الترجيح بالمعنى الذي قام ما يعارضه.

ثمَّ إنَّ القول بموجب القراءتين تكثير للمعاني،

وطريقة بيانه باختصار كالاتي:

إنَّ السَّجود لغير لله شرك بالله نهى الله عنه، والقراءتان دلَّتا على أنه قد اجتمع على شناعة هذا الشرك: ذم الله جل جلاله، والرسول³، والعلماء الصَّالحون⁴، والكون كلُّه؛ حتى الهدد؛ لأنَّ قراءة الكسائي بالوقف على الياء المفيدة للنداء المقدر "ألا يا سجدوا لله" تقديره: ألا يا عقلاء اسجدوا لله، وهذا داخل في تكثير الأدلة والشواهد على صحة قضية الوحدانية والإيمان؛ التي هي أعظم قضية في القرآن؛ وكلما كثرت الشواهد والأدلة على صحة قضية ما دلَّ على ثبوتها ويقينيتها كما هو الحال بالنسبة لوحداية الله . عز وجل . والله أعلم.

الفرع الثاني: ويتضمَّن التَّرجيح بقرينة خارجية وهي: الحديث الشريف.

يعتبر الحديث الشريف من القرائن الخارجية في تفسير كلام ربِّ العالمين، والترجيح بين الأقوال المختلفة، وهو من أعظم القرائن؛ فإذا ثبت الحديث في تفسير آيةٍ ما كان حجَّةً يجب المصير إليه.

مثاله ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِابْنِهِ - وَهُوَ يَعِظُهُ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]

يقول ابن عطية: وظاهر قوله ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّه من كلام لقمان، ويحتمل أن يكون خبراً من الله تعالى مُنقطعاً من كلام لقمان، متصلاً به في تأكيد المعنى " (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 659/7).

والظاهر أنَّ هذا القول من أفراد ما ذهب إليه ابن عطية؛ لأنَّه يخالف ما عليه كافة المفسِّرين، ولم أجد في حدود بحثي . من سبق ابن عطية إلى هذا التقرير من نسبة القول إلى الله؛ إذ الحديث جاء فيه صريحاً والله أعلم

وقد استدللَّ بقرينة خارجية وهو الحديث فقال: "ويؤيد هذا الحديث المأثور: إنَّه لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82] أشفق أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا: أئنا لم يظلم؟ فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فسكن إشفاقهم" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 660/7) هذه الرواية التي ذكرها ابن عطية.

³ . حيث أن القرطبي يذهب إلى أنَّ القائل: هو نبي الله سليمان. انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، مصدر سابق، ص 13 ج 188.

⁴ سيأتي في المثال القادم قول لقمان: "إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ".

ويمكن أن يقع التحليل لكلام الإمام من وجهين؛ من ناحية الدليل وهو القرينة الخارجية المتمثلة في الحديث، ومن الناحية الثنائية وهي المعنى.

أ. الوجه الأول: من جهة القرينة الخارجية وهي الحديث الشريف: فالمتبادر أن ابن عطية روى الحديث بالمعنى، وأن هذه الرواية غير ثابتة؛ خاصة وأن مخرجه واحد، وهو ابن مسعود. رضي الله عنه. فالرواية فيها: "فشق ذلك على أصحاب رسول الله" كما أخرجها البخاري في (كتاب التفسير، باب: لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)؛ عن صاحب القصة عبد الله بن مسعود. رضي الله عنه. قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82] شق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيئنا لم يلين إيماننا بظلم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ".⁵ وفي رواية: فشق ذلك على المسلمين⁶

وبناءً على ذلك: فلفظ: "فسكن إشفاهم"⁷ ليست في الحديث ولا في جميع الروايات، ويشبه أن تكون رواية بالمعنى؛ وسبب هذا التدقيق في الرواية أن ابن عطية بنى عليها فقال: "وإنما يسكن إشفاهم بأن يكون ذلك خبراً من الله تعالى" (عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 2015 م، 660/7)

فالحديث النبوي: يعتبر قرينة خارجية لتبيين المعنى وترجيحه، وما ذكره الإمام ابن عطية لا يقوم أمام الرواية الصريحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. والتي قال فيها: "ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ" التي ترجح جانب أن يكون هذا من قول لقمان الحكيم.

ب. من جهة المعنى: إذا اعتبرنا الجملة من مقالة لقمان⁸؛ كانت "إن" تفسيرية، وإذا اعتبرناها من قول الله كانت الجملة استثنائية؛ خبراً من الله؛ منقطعاً من كلام لقمان؛ متصلاً به في تأكيد المعنى، وقد مر معنا أن الصواب أنهما من قول لقمان ويؤكدده -من حيث المعنى-:

أن حقيقة الإيمان، والتوحيد هي قضية الكون كله؛ حيث توارد على الإقرار بالوحدانية:

كلام الله -تأسيساً-، وكلام أنبيائه -تبليغاً-، وكلام الصالحين من عباده كلقمان -تأييداً وشهادة- حتى الهدهد من الطيور والحيوانات. كما مر معنا في المثال السابق. والكون كله شاهد بهذا؛ فتوافر الشواهد وتتابعها يدمغ عقول أهل الشرك، ويبطل حججهم الواهية، كما أنه يرسخ قيمة الوحدانية لله في عقول البشرية أجمعين، وكلما كثرت الشواهد والأدلة على شيء دل على عظمته وقيمته، والله أعلم.

⁵ . وقد عزّا المعلق على (المحرر الوجيز) ج7، ص 660، رواية ابن عطية "أشفق أصحاب رسول الله" إلى البخاري برقم (4629) وليست فيه بلفظ ابن عطية، ولا هي. فيما تتبعه الباحث. في صحيح مسلم، ولا السنن والمسند، فيشبه أن تكون بالمعنى انتقل من قوله "فشق ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. إلى قوله "أشفق" ثم بنى عليها قوله: "فسكن إشفاهم"، والله أعلم.

⁶ . البخاري، كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى ولقد آتينا لقمان الحكمة (3246).

⁷ . وقد أكد هذا المعلق على (المحرر الوجيز). جزاء الله خيراً. فنفي أن تكون في البخاري ج7، ص 660.

⁸ . اختلف العلماء في لقمان الحكيم، هل كان نبياً أو صالحاً؟ والصواب أنه كان رجلاً حكيماً بحكمة الله وهي: الصواب في المعتقدات، والفقه والدين والعقل، قاضياً في بني إسرائيل، أسود مشقق الرجلين ذا مشافر؛ أي عظيم الشفتين. وممن قال بهذا: ابن عباس ومجاهد، وغيرهما، (المحرر الوجيز) ج7، ص 657.

خاتمة:

.إنَّ مبحث الموصول لفظاً المفصول معنًى؛ لا يزال بحاجة إلى مزيد من الدِّراسة، والبحث، والتَّأصيل؛ رغم أنَّه من الأنواع المهمة التي بها تُحلَّ إشكالاتٌ كثيرة، وقد أخصِّتُ على ما يربو عن خمسين ومائة موضعاً من مختلف أنواع هذا الصَّنَف؛ هي بحاجةٌ إلى استقراءٍ، ووضع معالم واضحة لها؛ وهذا العدد تقريبيٌّ وليس نهائياً.

وأما ابن عطية فحريٌّ أن تُفرد اختياراته في الموصول لفظاً المفصول معنًى برسالة جادة؛ إذ يعتقد الباحث أنَّ من أبرز مقاصد هذا المقال: لفت أنظار الباحثين إلى دراسته؛ وليس هذا خاصاً بابن عطية فحسب؛ بل يشمل المفسرين المحققين: كالطَّبْرِيّ، والقرطبيّ، ومن المعاصرين ابن عاشور. رحمهم الله.. ثمَّ الخروج باستقراء لمواضعه في القرآن الكريم، وبعد ذلك تأصيله وإرجاعه لأصول مضبوطة، ومعالم واضحة.

.وأما الدكتورة: خلود العبدلي فتعتبر أوَّل من درست هذا النوع، واقتصرت على ربع ياسين؛ غير أنَّ دراستها تعتبر نقطة بداية؛ إذ لا يزال هذا النوع بحاجة إلى استقراء وضبط، وتأصيل نظري. ومن المهم جداً في خاتمة المقال التذكير بأنَّ الموصول لفظاً المفصول معنًى؛ يعتبر ميداناً رحباً تُطبَّق فيه قواعد التفسير اللغوية، والشَّرعية، كما أنَّه يُعتبر ميداناً واسعاً لتطبيق قواعد النَّحو واللغة، وقد مرَّ معنا بعض منها: كقاعدة: توحيد مرجع الضَّمائر، وتأثير القراءات القرآنية في تكافئ المعاني، وتأثير القرينة الخارجية مع التنبيه إلى أن القول بأنَّ آية لقمان ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] هي من قول الله، وليست من قول لقمان هو رأي انفرد به ابن عطية ولم يسبق إليه، وقد اعتمد على حديث مروي بالمعنى، ومن القواعد. أيضاً: تأثير السياق في بيان المحذوف، والاستئناف بالواو؛ وغير ذلك مما مرَّ معنا؛ والله أعلم .

المصادر والمراجع:

- 1- ابن الخطيب. (1424 هـ). الإحاطة في أخبار غرناطة،. بيروت: دارالكتب العلمية.
- 2- ابن جرير الطبري. (2001 م). جامع البيان عن تأويل القرآن. مصر: دار هجر.
- 3- ابن عطية. (2015 م). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. قطر: وزارة الشؤون الإسلامية.
- 4- ابن عطية. (بلا تاريخ). فهرس ابن عطية. دار الغرب الإسلامي.
- 5- ابن منظور. (1414 هـ). لسان العرب، حواشي: اليازجي وجماعة من اللغويين. بيروت: دار صادر.
- 6- أبو عمرو الداني. (2008 م). التيسير في القراءات السبع. الإمارات: دار: مكتبة الصحابة.
- 7- أحمد بن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم. (بلا تاريخ). مقدمة في أصول التفسير. مكتبة الحياة.
- 8- أحمد بن فارس. (2011 م). معجم مقاييس اللغة. بيروت: دار الفكر.
- 9- السمين الحلبي. (بلا تاريخ). الدرر المصون في علوم الكتاب المكنون. دمشق: دار القلم.
- 10- القرطبي. (1964 م). الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكتب المصرية.
- 11- بدر الدين الزركشي. (بلا تاريخ). البرهان في علوم القرآن. لبنان: دار المعرفة.
- 12- حسين الحربي. (2008 م). قواعد الترجيح. السعودية: دار القاسم.
- 13- خلود العبدلي. (بلا تاريخ). الموصول لفظاً المفصول معنى في القرآن الكريم من أول يس إلى آخر القرآن. مركز تفسير.
- 14- عبد الرحمان بن علي ابن الجوزي. (1422 هـ). زاد المسير في علم التفسير. بيروت: دار الكتاب العربي.
- 15- فخر الدين الرازي. (1420 هـ). مفاتيح الغيب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- 16- محمد مرتضى الزبيدي. (1964 م). تاج العروس من جواهر القاموس. الكويت: وزارة الإرشاد.
- 17- ناصر الدين البيضاوي. (1418 هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. دار إحياء التراث العربي.